طبيعة اللغة

بقلم جورج يول ***ترجمة: بغزو صبرينة***

اللسانيات هو الاسم الذي أطلق على العلم الذي يدرس لغة البشر. سؤالان يخطران مباشرة في الذهن: أولا ماهي لغة البشر؟ وكيف نستطيع تحديد خصائصها ؟ ثانيا: ماذا تحوي دراستها ؟ وما الذي يجعلنا نعرفها كعلم قائم بذاته؟

هنالك سؤالان مرتبطان ارتباطا واضحا. فعندما تقرر دراسة أي شيء، عليك تعريفه وفقا لأهداف البحث. وبالرغم من ذلك هناك مجموعة من الملاحظات العامة حول طبيعة اللغة ستكون محور الفصل الأول. هذا ما سيقودنا إلى نقاط دقيقة أخرى ستكون موضوع الدراسة في الفصول الآتية.

في البداية...

بحسب الإنجيل: " في البداية كان القلم"، وحسب التلمود " خلق الله الكون بكلمة، وعلى الفور دون جهد أو آلام". كل الكتب السماوية، إضافة إلى معان إلهية أخرى تتخطى حدود فهم البشر، تركز على دور اللغة في تحديد رؤية البشر لهذا العالم.

بالتأكيد فإن اللغة تتجلى كمحور في حياتنا. فنحن نكتشف هويتنا كأفراد وكائنات اجتماعية عندما نكتسبها في صغرنا. اللغة وسيلة لاكتساب المعرفة والتواصل. كما أنها تحمل حاجات الحاضر ومخططات المستقبل، وفي نفس الوقت انطباعات الماضي.

يبدو أن اللغة سمة أساسية من إنسانيتنا، وهي تمكننا من الترفع عن الكائنات المتوحشة الأخرى، سواء أكانت حقيقية أو مجرد خيال. فشخصية كاليبان nabilaC في مسرحية "العاصفة" "ehT tsepmet" لشكسبير كانت تصرخ بأصوات كأصوات الحيوانات المتوحشة إلى أن علمها بروسبيرو orepsorP لغة البشر. في الرواية كان يشار إليها على أنها وحش ولكنها لم تكن كذلك. لقد كانت أحسن من وحش بري، فحسب أودن الوحش لا يستطيع الكلام: W.H.neduA

الوحش يفعل ما تستطيع الوحوش فعله

أشياء ليس باستطاعة الإنسان فعلها

ولكن شيئا ذا قيمة كبيرة ليس بمتناوله

الوحش لا يستطيع الكلام

عن الهضبة التي يسيطر عليها

عن اليائسين والمذبوحين

الوحش يسير خلسة ويداه على خصره

ووابل من اللعاب ينهمر من لسانه

نستطيع بالمصادفة أن نلاحظ أن الكلام هو الشيء الوحيد الذي لا يستطيع الوحش إتقانه، أما إذا كانت اللغة أيضا بعيدة عن متناوله، فهذا موضوع آخر، لأن اللغة لا تعتمد على الكلام فقط كطريقة جسدية للتعبير عنها.

ولأن أودن لم يدخل هذا الفرق في أبياته، وهذا ما سنعرفه الآن، فمن المهم التعرف على ذلك.

أقترح أن اللغة خاصة بالبشر، تفرقنا عن الوحوش والكائنات الأخرى، وأن النوع البشري يسمى homo lopuens وليس homo sapiens. ولكن بالرغم من أن اللغة ضرورية للبشر، وبفضلها استطاعوا السيطرة على المخلوقات الأخرى، فليس من السهل معرفة ما الذي يجعلها متميزة. بالطبع فهي متميزة ومن جانب آخر فالكائنات الأخرى تتواصل تبعا لعادة معينة، وإلا لما استطاعت التزاوج والتعاون في مستعمراتها.

تصميم اللغة:

المخلوقات الأخرى تتواصل وفقا لتقليد معين. والسؤال هنا، تبعا لأي تقليد أو عادة؟ الطيور تشير إلى بعضها البعض بالغناء أو التصفير، والنحل عن طريق الرقص، وهذه الأغاني والرقصات قد تكون متطورة جدا فهل هي لغة؟

يستطيع أحدهم أن يبرهن بأنها ليست كذلك، والإجابة عن السؤال هي أنها عبارة عن عادات متوارثة، عن تقليد، وحركات محدودة التي تنتج كرد فعل آلي(reactive) لحالة أو شيء معين وبهذه الطريقة فهي منقوصة من شيء أساسي وهو ليونة اللغة البشرية والتي تجعلنا منتجين(proactive) لمعان جديدة نستطيع من خلالها تشكيل واقعنا غير مقيدين بالسياق القائم (مؤثر معين)، كما قال برتراند راسل: "ليس مهما إن كان الكلب ينبح بطلاقة فإنه لن يتمكن من أن يقول لك بأن أبويه كانا فقيرين، ولكن وفيان". فما هي خصائص أو مميزات تصميم اللغة التي تنتج هذه الليونة المميزة للغة البشرية.

إحدى هذه الميزات هو الاعتباطية أو العشوائية فأشكال الرموز اللغوية (الكلمات) لا تحمل أي شبه طبيعي مع معانيها. فالرابط بينها ناتج عن إجماع، والإجماع يختلف جذريا من لغة إلى أخرى. فالكلمة الإنجليزية "god" تشير إلى حيوان ذي أربعة أرجل. الحيوان ذاته يشار إليه بكلمة مختلفة تماما "chien" وكلتا الكلمتين لا تشبهان الكلب. لو كان العكس لما تمكن الإنجليز من التعرف على الكلاب في فرنسا، والعكس صحيح.

صحيح أن بعض الرموز اللغوية ذات أساس طبيعي، وهي إلى حد ما تحاكي الطبيعة (onomatopoeic) (الكلمة تشبه الشيء الذي تصفه)، فمثلا bark الإنجليزية تشبه صوت الكلب على الأقل بالنسبة للإنجليز، وهذا يعود إلى إجماع المجموعة اللغوية. بالفرنسية نجد كلمة aboyer، وهي مختلفة تمام الاختلاف، وفي الألمانية bellen وهي مختلفة أيضا.

في الحقيقة من الصعب إيجاد وجه الشبه بين الكلمة bark والصوت الصادر عن الكلب والصوت الذي يصدره جذع الشجرة.

ولكن بما أن الرابط بين الشكل والمعنى اعتباطي إلا أننا لا نستطيع القول بأن لا علاقة تجمع بينهما. الكلمات اعتباطية من حيث الشكل، ولكنها ليست عشوائية من حيث الاستعمال.

العكس تماما، لأن الأشكال اللغوية لا تشبه ما تدل عليه بالذات. باستطاعتنا استخدامها لتشفير معان معينة بإجماع الجماعات اللغوية المختلفة. في الواقع لا وجود لرابط طبيعي بين أشكال الكلمات ومعانيها، وهذا ما يمكن المجتمعات من استعمال اللغة لتقسيم الواقع كما يناسبها.

هناك مثال غالبا ما يتردد وهو اسم الجمل في اللغة العربية البدوية التي تحوي كثيرا من الأسماء للحيوان الذي يسمى في الإنجليزية ببساطة camel. هذه المصطلحات مناسبة لتسمية اختلافات كثيرة مهمة بالنسبة للعرب، ولكن لا يشبه أي منها الجمل. وبنفس الطريقة نجد في اللغة الإنجليزية مجموعة كاملة من المصطلحات لأنواع عديدة من الكلاب: "hound"، "mastiff"، "spaniel"، "terrier"، " poodle"، ولكل واحد صورة مختلفة عن الآخر، ولكن هذه الكلمات لا تحتوي على شيء يدل على أنها كلها تدل على الكلب. هذه الاعتباطية والإجماع هما اللذان يمكناننا من اللعب بالكلمات، وهذا ما ينتج عنه استمتاع أو انزعاج عندما نجد كلمات في لغات أخرى تشبه الكلمات التي نستعملها، و لكن بمعان مختلفة، وقد لا تعجبنا دلالات هذه الكلمات في اللغات الأخرى.

عندما نقول أن الرموز اللغوية اعتباطية هذا لا يعني أن ننفي أنها أحيانا تكون محاكاة للطبيعة فكما قال إدغار ألان بو:" الصوت يجب أن يكون صدى للمعنى" ولكننا لا نستطيع أن نستعمل أي صوت فقط لمحاكاة الطبيعة، فيجب أولا معرفة المعنى المقصود وبعدها نختار الشكل المناسب.

خاصية ثانية مرتبطة بالأولى تعرف ب"الثنائية". تعمل اللغة البشرية على مستويين للتركيب، على المستوى الأول توجد عناصر ليس لها معنى في حد ذاتها ولكنها تجتمع لتكون وحدات لها معنى في مستوى آخر. مثلا إذا أخذنا هذا البيت لكيتس keats:

The murmurous haunt of flies on summer eves

تمتمات الذباب وزياراته المستمرة عشية قدوم الصيف

نجد أن هناك إعادة للصوت/ s / أحيانا يكون صائتا، كما في "eves" و"flies" وأحيانا يكون غير صائت، كما في " summer". هذه الاختلافات جزء من النظام الصوتي للغة الإنجليزية.

ولكن هذه الأصوات ليس لها معنى في حد ذاتها، ولكنها تتجمع بكل الطرق لتكون كلمات لها معنى مثلا:

safe / seif/ ; face / feis/

phase /feiz/ ; save /seiv/

هذه الثنائية تمد اللغة بقوة إنتاجية كبيرة: عدد قليل نسبيا من الأصوات في مستوى واحد تستطيع أن تدخل في آلاف من التركيبات لتكون وحدات لها معنى في مستوى آخر.

تحدثنا من قبل عن الثنائية بالنسبة للغة المنطوقة، ونفس المبدأ يمكن تطبيقه على اللغة المكتوبة أيضا، وهنا تدخل الحروف في تركيبات مختلفة لتكون كلمات ذات إملاء مختلف تدل على معان عديدة. كما يشير المثال المذكور سالفا، أحيانا تحدث صدف بين النظام الصوتي والنظام الحرفي، فالتضاد في/ fies/ و / vies / يبرز أيضا في النظام الحرفي أو الكتابي "efas" و" evas " وهناك أمثلة لا تعد في اللغة الإنجليزية بهذا الخصوص، فاللفظة / tias/ = etis، thgis، etic. تختلف اللغات كثيرا من حيث درجة ونوع التناسب بين أصواتها ونظامها الكتابي (الإملائي)، وهذا بحد ذاته تأكيد على ليونتها. لا تظهر لغة الحيوان استغلالا لوسائل أخرى لتطوير أنظمة تواصل بديلة بالطريقة نفسها .

الثابت أن لغة البشر منطوقة في الأساس. فالفرد يبدأ اكتسابه للغة بالجانب المنطوق منها، كما أن التاريخ يثبت أن اللغة بدأت منطوقة، وبعد ذلك اخترعت الكتابة. واللغة المكتوبة مبنية على النطق، ونستطيع اعتبارها نسخة مشتقة، وكل وسيلة تفسح المجال لأشكال مختلفة من الاتصال.

استخدمت المدونة في الكتابات الرومانية القديمة كطريقة للتأريخ لشخصيات في ذلك العهد، وبالتالي فالكتابة هي اتصال ذو رد فعل متأخر، ولا ترتبط بالمكان والزمان المباشر. فالكاتب حين يكتب يكون بعيدا كل البعد عن المتلقي، وبإمكانه الحديث عن الوجود بعيدا عن الاتصال المباشر به، وهي خاصية أساسية للغة المنطوقة.

يبرهن تطور الكتابة كنسخة مشتقة من اللغة المنطوقة واستغلالها بأشكال متعددة على الليونة ومخزون الإبداع في اللغة البشرية.

تواصل الحيوانات:

بإمكاننا إذن أن نعد اللغة إنجازا بشريا حقيقيا، ولكن أهي خاصة بالبشر فقط؟ هل تختص بالإنسان كنوع محدد من المخلوقات؟ للإجابة عن هذا السؤال بإمكاننا مقارنة لغة الحيوان ولغة البشر لنرى إذا ما كانت تحتوي على الخصائص التي تحدثنا عنها سابقا.

من الصعب هنا ترجمة المعطيات إلى دلائل، ولكن كم عدد هذه الخصائص؟ وإلى أي حد يجب أن يكون نوع الاتصال متطورا لكي نشبهه بلغة البشر؟

قد تبدو لغة الحيوان بدائية بالنسبة لنا، ولكننا لا نعرف إلى أي مدى استغلت الحيوانات الإمكانيات التي تتوفر عليها، فالطيور والدلافين والنحل قد تظهر خصائص أكثر تعقيدا للاتصال إذا ما أتيحت لها الفرصة، وقد يتطور أداؤها أكثر من الأداء الحالي.

سؤال آخر يطرح هنا: كيف بإمكاننا فهم وترجمة العلامات والرموز التي تقوم بها الكائنات الأخرى إذا كنا نعتمد في فهمها على الرموز والعلامات التي نستخدمها نحن؟

إذن فإن نظرتنا محدودة لأننا نرى الأشياء من منظورنا كبشر(anthropocentric). بالطبع نستطيع تخيل التطور اللغوي لدى الحيوانات، يبرز هذا بالطبع في مخيلة الأطفال المليئة بالحيوانات التي تتكلم، وقد تظهر في خيال الكبار أيضا، وكمثال على ذلك يمكننا قراءة رحلات غوليفر للكاتب سويفت swift أو مزرعة الحيوانات للكاتب أوروال orwell، ولكن الحيوانات في كلتا القصتين تحمل صفات البشر وتتكلم وتتصرف مثلما يفعل البشر وليس على طبيعتها الحيوانية.

طريقة أخرى لمعرفة ما إذا كانت اللغة خاصة بالبشر هي محاولة تعليم الحيوانات الكلام، فربما لديها قابلية لتعلم اللغة. ربما تستطيع بعض الحيوانات الكلام، ولكنها لا تعرف كيف تفعل ذلك. وبما أن الشمبانزي (نوع من القرود) هو أصل الإنسان الذي تطور بعد ذلك (نظرية داروين) فقد أجريت التجربة على هذا النوع بالذات.

لقد أثبت أن هذه الحيوانات غير مهيأة فيزيولوجيا بالحبال الصوتية مثلما هو الحال بالنسبة للبشر، وبالتالي إذا ما كنا سنعلمها لغة فستكون شكلا آخر من أشكال التواصل بعيدا عن الكلام.

تربت الشمبانزي واشو وتعلمت كيفية استعمال لغة الرموز الأمريكية ، وبعد أربع سنوات تعلمت 80 رمزا. أما الشمبانزي سارة فقد اعتمدت معها طريقة أخرى، لقد تم استعمال رقاقات بلاستيكية تحمل أشكالا وألوانا مختلفة، ولكل واحدة منها معنى معين. العلاقة بين الرقاقة والمعنى اعتباطية تماما (مربع أحمر= موزة). أما الشمبانزي لانا فقد تم تجهيز غرفتها بحاسوب به أزرار تحمل رموزا مختلفة، وكان على لانا الضغط عليها، الرابط بين الزر والرمز المكتوب عليه اعتباطي أيضا.

كل من سارة ولانا تعلمتا مجموعة كبيرة من الرموز، وكان بمقدورهما التجاوب معها. لقد استطاعتا أيضا تركيب العديد من الرموز مع بعضها البعض.

نتائج هذه المجهودات مع حيوانات الشمبانزي لم تكن مقنعة. وسبب ذلك هو الفرق الشاسع بين المجهودات الجبارة المبذولة والنتائج الضئيلة المحصل عليها. الأطفال الصغار يتعلمون اللغة بسهولة ، ودون نظام من التعليمات المكثفة كالتي خضع لها الشمبانزي.

كل هذا المجهود المبذول لتعليم سلوكات لغوية بدائية هو دليل على أن الحيوانات لا تتوفر على قابلية طبيعية لتعلم اللغة. مع استعمال كل هذه الأجهزة المتطورة ونظام مكثف من التعليمات من الممكن أن نكون قد فرضنا على الحيوانات تغيير سلوكها. فالحيوانات أظهرت ردود أفعال شرطية متطورة أكثر منه إثباتا بأنها تستطيع تعلم اللغة.

بإمكان البشر الحديث عن ما هو مجرد بعيدا عن السياق وما هو مادي. وهذه الدراسات أثبتت بأن الحيوانات لا تتمتع بهذه الإمكانية (تحويل ما هو مادي إلى مجرد). كبشر تمكننا اللغة من التحكم بالعالم وإعادة صياغة الواقع، فنحن نحول المادي إلى محسوس. نحن لا نتأثر فقط كما هو الشأن بالنسبة للحيوانات، وإنما ننتج لغة أخرى.

من المثير للاهتمام أن حيوانات الشمبانزي التي أجريت عليها التجربة لم تحاول استعمال ما تعلمته من رموز وعلامات مع أفراد آخرين من جنسها. إنها ليست واعية بالامتيازات التي قد تمنحها إياها اللغة. وبالتأكيد هذا ما يجعلنا نطرح سؤالا عاما، ويتمثل في ما إذا كانت الحيوانات تملك القدرة على تعلم اللغة فلماذا لم تستغلها؟

هذا ما يقودنا إلى طرح آخر، رأينا سابقا في التجربة التي قمنا بها على الشمبانزي سارة ولانا أن الحيوانات ليست مؤهلة لتعلم اللغة لأنها لا تملك حبالا صوتية، وإذا كانت ستتعلم شكلا من أشكال اللغة فسيكون عن طريق وسائل أخرى. هذا ما يظهر للعيان أن الشروط والظروف غير طبيعية وما يتعلمونه أيضا لا يعتبر لغة طبيعية.

قد تظهر هذه التجربة لنا أشياء لم نكن نعرفها عن مدى ذكاء الشمبانزي، وتحيطنا علما باللغة التي تستعملها هذه الحيوانات. نعلم جميعا أنها تستخدم نظام اتصال معقدًا مقارنة بلغتنا كبشر لأنها تستخدم علامات مسموعة ومرئية لا نعدها نحن مهمة. محاولة تعليم القرود كيفية الكلام يعكس عجزنا عن فهم أن اللغة إنسانية، أي حكر على البشر.

اللغة البشرية: هبة أم هدف على الإنسان تحقيقه؟

لنعد إلى السؤال الذي بدأنا به: هل اللغة حكر على البشر؟ الجواب هو أن اللغة بشرية وذات خصائص معينة .

إذا ما سلمنا بذلك، فهنالك سؤال آخر يطرح نفسه: إذا كانت اللغة بشرية تحديدا، فهل هذا يعني بأننا نولد بها؟ أهي جزء من تركيبنا الوراثي؟ أهي هبة؟

يمكن أن نثبت أن اللغة خاصية بشرية، ولكن هذا لا يعني بأنها جزء من تكويننا الجيني. نحن المخلوقات الوحيدة التي ترتدي الملابس وتطبخ. و لكن لا أحد يستطيع القول إن هذا راجع إلى استعداد فطري. الشيء نفسه بالنسبة للحيوانات، فمن الصعب علينا جعلها تكتسب هذه الأشياء البشرية أو جعلها تتكلم. بإمكاننا أن نلبس القرود ونجلسهم في حفلة شاي، و لكن هذا تقليد ليس إلا، ولا يحتوي على أي إبداع.

وهذا ما أخذه نعوم تشومسكي كقاعدة ليدرس اللغة، كون اللغة جزء من التكوين الجيني للإنسان يفسر كثيرا من الوقائع التي لا يمكن شرحها إذا لم يتوفر هذا الطرح. أول هذه الوقائع هو سهولة تعلم اللغة عند الأطفال فبمقدورهم اكتساب نظام صرف معقد بعيدا كل البعد عن أي تقليد لأصوات يسمعونها. الأطفال لا يقلدون اللغة كالببغاء، بل يتعاملون مع اللغة التي تحيط بهم لتكوين قواعد لم تدرس لهم، وإنما يتم اكتسابها من المحيط. اللغة ليست عبارة عن تجميع فقط، بل تنظيم أيضا. فمن أين تأتي هذه القدرة على التنظيم؟

Language الجواب هو وجود نظام وراثي مبرمج، أو ما يسمى" آلية اكتساب اللغة"، وهي التي توجه العملية التي يكتسب الأطفال منAcquisition Device (LAD) خلالها القواعد من معطيات اللغة المحيطة بهم.

والفكرة هي أننا كبشر متصلين باللغة كلغة بشكل عام وليس بلغة محددة. DAL توفر مبادئ وقواعد نحو عامة ومحدودة أو ما يسمى " النحو العالمي" أو " النحو العام"، والتي يتم تحقيقها تبعا للغات المختلفة بحسب المحيط« Universal Grammar » اللغوي الذي يتعرض إليه الطفل.

هذه المبادئ، حسب تشومسكي، عبارة عن مجموعة من المعايير العامة التي يتم قولبتها لاحقا بحسب اللغات المختلفة، كما أنها جزء من تركيبنا الذاتي، وهي مبرمجة مسبقا ووراثية. أما المحيط فهو عبارة عن مجموعة من الظروف المحيطة بالمتعلم (الطفل) وهي تختلف من مجتمع إلى آخر. بالنظر إلى المعايير العامة كل اللغات متشابهة، وإذا أخذناها من زاوية المحيط فهي مختلفة كل الاختلاف.

حين يكتسب الأطفال لغتهم لا يأخذون القواعد الخاصة بها من العدم، وإنما يأخذون المعطيات من المحيط، وبعدها يقومون بتطبيقها على المعايير التي زودوا بها من قبل. وكأنهم جهاز استقبال يستقبل قنوات كثيرة، وكل ما عليهم هو ضبط الجهاز على موجة معينة للاستماع إلى الإذاعة المطلوبة.

لا نستطيع أن ننكر أن الدماغ البشري مجهز وراثيا بقدرة ذهنية على التعلم. ولكن ما يثير الجدل والاختلاف، بالنسبة لنظرية تشومسكي، هو أن البشر مزودون ببرنامج لغوي خاص ومختلف كل الاختلاف عن أي برنامج آخر أو قدرة أخرى، وهذا يعني أن تعلم اللغة لا يمكن شرحه بأنه تطور لعملية ذهنية، ولكن هو تشغيل لنظام غريزي و تطور لعضو ذهني منفصل.

اللغة، العقل و الحياة الاجتماعية:

من منطلق قواعد النحو العام (GU) فاللغة ذات طبيعة ذهنية، وهي ظاهرة نفسية أيضا. والمثير للاهتمام حقا هو ما توضحه عن العقل البشري، أما الجانب الآخر الأكثر أهمية هو أن

اللغة وسيلة للاتصال و التحكم الاجتماعي. صحيح أن اللغة شيء داخلي، وهي مجردة، ولكن من أجل تحقيق هذا التواصل الاجتماعي يجب أن تصبح معيشة وجزءا من السلوك الظاهر.

جانب آخر للغة هو وظيفتها الاجتماعية، ومن اللافت للانتباه أن اللغة عبارة عن نظام من الرموز والعلامات المطورة لكي تعبر عن الحاجات الثقافية العامة لمختلف المجتمعات. وهنا تحديدا يمكننا التركيز على قول مايكل هاليداي:" اللغة سيميائيات اجتماعية"، وهذا يعن أن اللغة عبارة عن نظام من العلامات المصممة اجتماعيا أو المطورة لتعبر عن معان اجتماعية، والتركيز هنا على اللغة كوسيلة لتحقيق وظائف معينة.

وبالتالي إذا كان البشر هم الوحيدون على الإطلاق في استعمالهم للغة للتعبير عن معان اجتماعية، فالحيوانات تستخدم إشارات مختلفة للتواصل في مجتمعاتها، ولكن بنية هذه الإشارات لم تصل إلى التطور الذي وصلت إليه لغة البشر.

نحتاج بهذه النظرة الاجتماعية والذهنية للغة إلى مزيد من الشرح. اللغة لم تتطور بيولوجيا فقط، ولكنها تطورت اجتماعيا وثقافيا في المجتمعات البشرية. فاللغة تساعد الإنسان على فهم محيطه، ومن ثم تقسيمه وتنظيمه ثم السيطرة عليه، ومن هنا تأتي الوظيفة الفكرية أو (Ideational function) وظيفة أخرى تقوم بها اللغة هي الوظيفة البيذاتية (function interpersonal) وهي التي تسمح للبشر بالتواصل وتبادل وخلق التعاون في العلاقات الاجتماعية. وهذه الوظائف تنعكس في الألفاظ والعبارات، وهي جزء من النحو العام المجرد، ولو أن تشومسكي لم يشر إلى ذلك. يتم تحقيق هذه الوظائف على أرض الواقع بطرق مختلفة باختلاف المجتمعات اللغوية، بحسب ثقافة كل مجتمع والقواعد التي تحكمه.

إذن فاللغة خاصية بشرية لأنها مرتبطة بالعقل البشري بالدرجة الأولى، وبالمجتمع كقاعدة ثانية، وأساسها التفكير والتواصل، إنها عبارة عن معرفة مجردة وسلوك ظاهر، وهي تصميم مبني على خصائص عديدة كالاعتباطية والثنائية، وغير مرتبطة بالمحيط المباشر، وتعمل على مستويات مختلفة (الكلام- الكتابة) ومستويات مختلفة من التنظيم (الأصوات- الكلمات- الجمل) وغير ذلك.

العوامل، الممثلون، والصور

مقدمـــة:

نطرح في هذا الفصل ترجمة من الفرنسية إلى العربية لنص مـــن كتـــاب "فـــي المعنـــى 2" [1] لغريماس حيث أورد بعض الإشكاليات السردية التي تنبثق من التمييز بين العوامل الصادرة عن النحو السردي وبين الممثلين المتمظهرين في الخطاب، المشكلة المطروحة في إطار النظريـــة السردية، خاصة في مركبتها العاملية، هي معرفة ما إذا كان للتصويريات الخطابية أن تخضـــع للتحليل البنيوي، أي هل يمكننا أن نستخلص عناصر اسمية منفصلة قابلة لمواجهتها ومطابقتهـــا كلمة كلمة بالأدوار العاملية؟ فكان أن قدم غريماس مفهوم الدور التيماتيكي الذي يستمد جوهره الوظيفي من اختزالين: الأول هو اختزال للتصويرية الخطابية في مسار تصـــويري يمكـــن أن يتحقق في الخطاب، والثاني هو اختزال لهذا المسار في فاعل كفء يشمل ذات المسار افتراضا. فالدور التيماتيكي بما يعنيه من استثمار بنيوي للأدوار العاملية من شأنه أن يشكل الجهة الوسيطة التي تهيئ عبور البنى السردية إلى البنى الخطابية.

1- البنى السردية

1-1- العوامل والممثلون:

إن إعادة التأويل اللساني لشخصيات_الدراما Dramatis personae [2] التي اقترحناها انطلاقا من التوصيف البروبي للحكاية العجيبة الروسية سعت إلى إقامة، في المقام الأول، تمييزا بين *العوامل* المتعلقة بالتركيب السردي و*الممثلين* الذين يمكن التعرف عليهم في الخطابات الخاصة أين يتمظهرون. إن هذا التمييز الذي لا نزال نعده ملائما - حسبه أنه أتاح لنا الفصل بجلاء بين المستويين المستقلين أين يمكن أن يتموضع التفكير حول السردية- لم يتوان في إثارة منذ البداية عدة صعوبات مبينا من هنا تعقد الإشكالية السردية. لقد أدركنا، على سبيل المثال، أن العلاقة بين الممثل والعامل، بعيدا عن أن تكون صلة تصنيف بسيطة لوحدة لسانية واردة في ملفوظ، هي علاقة مزدوجة:

---

[1] A.J.Greimas, Du Sens II, Seuil, Paris, 1983, p.49-66

[2] عبارة لاتينية تعني شخصيات الدراما، حاليا تعني قائمة الممثلين في مسرحية تقدم وفق ترتيب ألفبائي.

[وأدركنا أيضا أنه] إذا كان بالإمكان أن يتمظهر العامل (أ1) في الخطاب عبر عدة ممثلين (ا1، ا2، ا3)، فالعكس أيضا ممكن، [إذ] بإمكان ممثل واحد أن يكون توفيقية بين عدة عوامل (أ1، أ2، أ3).

إن دراسات سابقة أتاحت رؤية أكثر وضوحا [فيما يتعلق] بالتنظيم العاملي " لشخصيات الحكاية"، وحتى بإمكانية تصور نحو سردي بمعزل عن التجليات الخطابية. وعلى العكس من ذلك، لم يكن التنظيم التمثيلي محل عناية من طرف هذه البحوث إلا قليلا. وهو عجز يمكن بسهولة أن يُفسَّر بغياب نظرية متناسقة للخطاب، مفيدين من البحوث السردية التي، فيما يبدو، وبمعنى من المعاني، تراوح مكانها، اعتقدنا أنه لن يكون مجديا أن نعمد، في ذات الوقت، إلى ضبط مصطلحي وتعليمي، وذلك لغرض مزدوج: حتى نقوم بجرد كل ما من شأنه، في هذا المجال، أن يكون منوِّها بالعدد المتزايد دائما ــ خاصة بفعل الانتقال المتدرج لمركز الاهتمام من الأدب الشفهي إلى الأدب المكتوب ــ للمشاكل التي يجب حلها عاجلا، وللاتجاهات التي من المرجو سلوكها.

2-1 – البنية العاملية:

تتبدى البنية العاملية شيئا فشيئا جديرة بمقاربة تنظيم المخيال الإنساني [الذي] هو إسقاط لكل من العوالم الجمعية والفردية على حد سواء.

1-2-1- *فصلات تركيبية*:

إذا اعتبرنا الحكاية *ملفوظا كليا* تنتجه وتبلغه ذات ساردة [إلى مسرود]، فإن هذا الملفــوظ الكلي يمكن أن يجزأ إلى متوالية من *الملفوظات السردية* (= " وظائف" بروب) المتسلسلة. إذا ما عزونا إلى الفعل-المسند للملفوظ وضعية الوظيفة (بالمعنى المنطقي للعلاقة الشكلية)، فإنه يمكننا أن نعرّف الملفوظ باعتباره علاقة بين العوامل المشكلة له. يمكن لنوعين من الملفوظات السردية أن يلتقيا:

ذات موضوع مرسل موضوع مرسل إليه

أو عبر الترميز المستعار من المنطق:

ف (ذا ⟵ مو) ف(مر1 ⟵ مو ⟵ مر2)[3]

مهما كانت التأويلات التي سنعطيها لهذه البنى التركيبية:

(أ) على المستوى الاجتماعي، العلاقة بــين الإنســان والعمــل المنتجــة لقــيم-موضوعات والمسوقة لها في إطار بنية تبادلية، أو

(ب) على المستوى الفردي، علاقة الإنسان بموضوع رغبته واندراج هذا الأخيــرة في بنيات التواصل الــمابين-إنساني، فإن الفصلات المســجلة مــن طــرف هــذه الخطاطات الأولية تبدو عامة بما فيه الكفاية لتمدنا بقواعد أولٍ تمفصــلٍ للمخيــال. سواء أتعلق الأمر بتلفيظ للبنى " الحقيقية" السابقة للفعل اللساني أم بإسقاطات العقــل الإنساني المنظمة لعالم ذي معنى، فالأمر لا يهم كثيرا: إنها [أي الفصلات] تتجلــى كوضعيات شكلية تتيح تمظهر وتمفصل المعنى.

[3] ذا= ذات، مو= موضوع، مر1= مرسل، مر2= مرسل إليه

1-2-2- الفصلات الاستبدالية:

يقتضي مفهوم البنية، وهو الافتراض الأولي المضمر لكل استدلالاتنا، وجود شبكة علائقية من صنف استبدالي متضمنة في العوامل مثلما تتجلى في الملفوظات السردية. إذن، كل شيء يحدث وكأن الذات – [سواء أكانت] مرسلا للسرد أو مرسلا إليه –، حينما تكون في حالة إنتاج أو قراءة رسائل سردية، تكون متوفرة، مسبقا، على بنية أولية تمفصل الدلالة في شكل مجموعات متشاكلة بإمكان المربع السيميائي أن يكون بمثابة نموذجها، و في كل الحالات، تُميِّز [ذات البنية] بين الإشارة الإيجابية (ذا1 + ذآ 2) والإشارة السلبية (ذا2 + ذآ 1)[4].

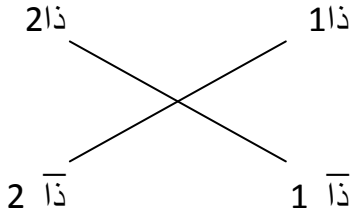

ينتج عن ذلك على الأقل انشطار للبنية العاملية أين يمكن إحالة كل عامل إلى إحدى الإشارتين، [مما] يفرز التمييزات التالية:

ذات إيجابية	عكس	*ذات سلبية* (أو ذات مضادة)
موضوع إيجابي	عكس	*موضوع سلبي*
مرسل إيجابي	عكس	*مرسل سلبي* (أو مرسل مضاد)
مرسل إليه إيجابي	عكس	*مرسل إليه سلبي* (أو مرسل إليه مضاد)

مع أن الاتفاق ما زال قائما على أن مصطلحي إيجابي وسلبي هما مجرد تسمية ولا يقتضيان أي حكم قيمي، إلا أن الغموض سرعان ما يكتنف بعضا من الحالات. ومنها، على سبيل المثال، الأدب الإثني الذي يتيمز غالبا *بنزعة أخلاقية* ثنائية صارمة أين يكون التقابل *الإيجابي* عكس *السلبي* مزودا بمضامين *حسن* عكس *سيء*. مما يفرز أزواجا [على شاكلة]: البطل والخائن، المساعد والمعارض، الخ.

[4] الإشارة هي بعد من الأبعاد الأساسية للمربع السيميائي الذي يضم بواسطة علاقة التضمن عنصرا من عناصر محور التضاد مع نقيض العنصر الآخر المضاد.

في حين أن مثل هذا التضمين الأخلاقي ليس ضروريا ولا عاما بشكل كـاف: بسـهولة يمكن أن يستبدل بتضمين جم*الي* على سبيل المثال، أو أن يوزع، ليس فقط علـى الإشـارتين المتقابلتين، ولكن أيضا على عديد من أطراف المربـع السـيميائي، وذلـك حينمـا تتوقـف " الشخصيات" عن أن تكون فقط " حسنة" أو "سيئة".

1-2- الأدوار العاملية:

إلى جانب الفصلات البنيوية التي تعنى بتفسير حيوية السرد والفصلات التركيبية التـي، بعدّها إسقاطات للفعل الإنساني الافتراضي، تتيح تمثّل سيرورته، هناك أصناف أخرى تتـدخل لتنويع البنية العاملية. مع ذلك، وعلى عكس الفصلات التي أتينا على ذكرها والتي تحلل الفضاء المخيالي إلى عدة أمكنة متميزة تحافظ، حين إسقاطها أو تناولها، على توازن معين، فإن أصنافا جديدة تتضافر في تحديد العوامل أثناء تطورها التركيبي.

1-3-1- الكفاءات والإنجازات:

إن مفهوم *الإنجاز* الذي اقترحنا إدراجه في المصطلحية السردية ليعوض مفـاهيم شـديدة الغموض كـ"امتحان"، " اختبار"، " عمل صعب" حيث إن البطل مدعو إلى تحقيقـه، وليعطـي تعريفا بسيطا للذات (أو الذات المضادة) في هيئة *الذات الفاعلة* – حيث يختصر هذا الفعل فـي متوالية بسيطة من الملفوظات السردية –، يستدعي وبشكل طبيعي مفهوم *الكفاءة*.

على المستوى السردي، نقترح تعريف *الكفاءة* كـ *إرادة و/أو قدرة و/أو معرفة الفعل من طرف الذات* والتي يفترض وجودَها المسبق الفعلُ الإنجازي. لقد أضحى مبتذلا القول، في كـل نسق سيميائي، إن ممارسة " الكلام" تفترض مسبقا وجود " لغة" وإن إنجاز الذات الدالة يفترض مسبقا كفاءتها الدلالية. إذا كان كل ملفوظٍ متمظهرٍ يعني ضمنا، لدى ذات التلفظ، إمكانية تشكيل الملفوظات، فإن هذه الأخيرة تظل، مع ذلك، مضمرة على العموم. وعلى العكس من ذلك، فـإن السرد بالقدر الذي يعني إسقاطا متخيلا لوضعيات "حقيقية"، فإنه يعلن عن قدرته على تجلية هذه الافتراضات المسبقة مبَينًا وبشكل متسلسل كفاءات وإنجازات الذات. بل إنها تقوم بأكثر من ذلك، على سبيل المثال، إذا كان ممكنا تصور كفاءة الذات المتكلمة كتوفيقية بـين إرادة + قـدرة + معرفة التكلم، فإن السرد، وهو يجلِّي هذه الكفاءات المتنوعة ككفاءات متعلقة بالفعل السـيميائي، يقدر على الفصل بينها في ذات الوقت، سواء بإسناد جهة معرفة– الفعل أو قدرة– الفعل إلى عدة

عوامل، أو بجعل عامل واحد يحصِّل هذه الجهات المتعددة بشكل منفصل ومتعاقب عبر نفس البرنامج السردي.

هذا ما أردنا أن نخلص إليه: إذا كانت *الذات الكفأة* تختلف عن *الذات المنجزة*، فإنهما مع ذلك لا يشكلان ذاتين متمايزتين، فما هما إلا وضعيتان لنفس العامل الواحد. بمقتضى *المنطق التحفيزي* (*post hoc, ergo propter hoc*)[5]، فالذات ملزمة قبلا باكتساب كفاءة معينة حتى تتحول إلى [ذات] منجزة، ووفق منطق *الافتراض المسبق*، فالفعل الإنجازي للذات يقتضي بدءا كفاءة الفعل.

نقول إذن بإمكان العامل– الذات أن يضطلع، في برنامج سردي معطى، بعدد من *الأدوار العاملية*. تتحدد هذه الأدوار، من خلال *وضعية* العامل في التسلسل المنطقي للسرد (تعريفه التركيبي)، وفي الوقت نفسه من خلال استثماره *الجهي* (تعريفه التصنيفي)، مما يجعل التقعيد النحوي للسردية أمرا ممكنا.

إن إمكانية تأسيس مصطلحية للأدوار العاملية، والتي أضحت واجبا، ستتيح لنا التمييز بجلاء بين *العوامل* في حد ذاتها و*الأدوار العاملية* التي هي مدعوة إلى الاضطلاع بها عبر سيرورة الحكاية. وعليه بإمكاننا أن نميز بين *الذات الافتراضية* و*الذات المريدة* (أو الذات المؤسَسة)؛ وبين الذات المريدة و*البطل بمقتضى القدرة* (الغول[6]، رولان[7]) أو *البطل بمقتضى المعرفة* (الإبهام الصغير[8]، الثعلب[9])، إلخ.

1–3–2– التصديق

لا تنحصر إستراتيجية الأدوار العاملية المكتسبة أو المتبادلة طوال الحكاية في لعبة الكفاءة والإنجاز [فحسب]. لذلك، علينا ألا ننسى أنه لا يمكن أن تُكتسَب *كفاءة* الذات (*تأهليها*) إلا

[5] عبارة لاتينية تعني على أثر ذلك، أو سبب ذلك

[6] الغول شخصية خرافية متوحشة تمتلك قدرة على الفتك بالأطفال وأكل لحومهم

[7] Roland شخصية أسطورية محورية في ملحمة "أغنية رولان" وسمها المخيال الشعبي الأوربي في القرون الوسطى بالشجاعة والنبل والتضحية بالنفس في سبيل الآخرين.

[8] Le Petit Poucet بطل حكاية خرافية من تأليف Charles Perrault، يتميز بذكاء حاد، تمكن من تخليص نفسه وإخوته من براثن الغول.

[9] شخصية خرافية من قصص الحيوان، كما تناقلتها الآداب العالمية، هندية، عربية، فرنسية،الخ، اتسمت بالذكاء والحيلة، كما توضحه حكاية الثعلب و الغراب وقطعة الجبن.

بمآزرة إنجاز *صوري*، وحسبنا مثالا في ذلك الحكاية الشعبية. والحـال أن قولنـا إن الإنجـاز *صوري* يوحي بأن تحققه يبدو *حقيقة* غير أنه ليس كذلك " بالفعل".

وعليه فمشكلة التصديق تتجاوز بشكل واسع إطار البنية العامليـة. إن إدراجنـا لصـنف الكينونة والظاهر في الإطار الذي رسمناه، يدعونا حاليا إلى تبيان أن هذا التصنيف، مع أنه يعقد أكثر اللعبة السردية، إلا أنه يزيد وبشكل معتبر عدد الأدوار العاملية. حـين نقتـرح التأويـل السيميائي للتصنيف *صدق عكس بطلان* وفق تمفصلات المربع

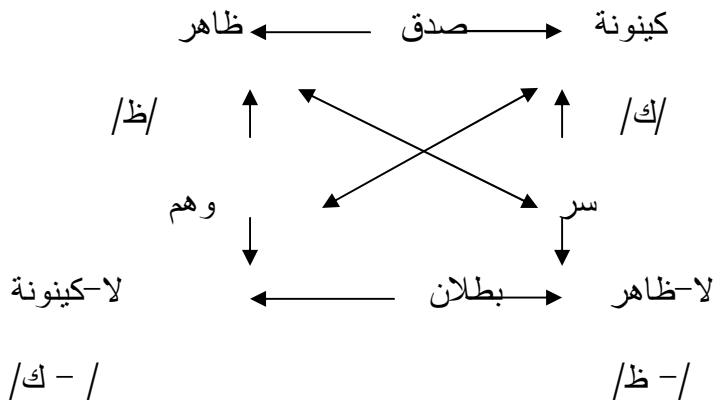

فنحن لا نسعى فقط إلى أن نحرر هذا التصنيف الجهي من علاقاته بالمرجع غير السيميائي، ولكن أيضا، على وجه الخصوص، [نسعى] إلى التنويه بأن التصديق يكوِّن تشاكلا سرديا مستقلا، خليقا بأن يضع مرجعيته الخاصة فينمذج فوارقها وتحولاتها، مقررا بذلك " الحقيقة الذاتية للحكاية".

إن تحديد العوامل وفقا لتصنيف *الكينونة* و*الظاهر* يكشف "لعبة أقنعة" استثنائية هي جماع مواجهات بين أبطال مخفيين وآخرين مجهولين أو متعرف عليهم وبين خائنين متنكرين يُفتضَح أمرهم ثم يعاقبون، وبذلك تشكل [هذه اللعبة] أحد أهم محاور المخيال السردي. ما يمكن أن نقرَّ به في الوقت الحاضر هو إمكانية [استخلاص] تنويعات جديدة للبرامج السردية: وعليه، يكفي أن يقتصر مثالنا على الحكاية الشعبية، [حتى ندرك] أن الذات المؤسسة (المزودة بجهة الإرادة) تنشطر في الحال [...] إلى ذات وذات مضادة، كل واحدة منهما مهيئة لأن تكتسب كفاءات وفق القدرة أو المعرفة (أو الاثنتين على التوالي) لتمنحنا بهذه الطريقة على الأقل أربعة (أو ثمانية)

أدوار عاملية، ولتتيح لنا مسبقا تصنيفا منمذجا للذوات الكفأة (أبطال أو خونة) الذي، بدوره، يسمح لنا بتحديد مسارات سردية مختلفة. إن تحديد هذه الذوات الكفأة والمختلفة وفق جهات *صدق عكس بطلان و سر عكس كذب*، مثلما من شأنه أن يضاعف عدد الأدوار العاملية، وينوع من المسارات التركيبية التي تسلكها الذوات، فإنه أيضا – وهذا مهم– يتيح حساب التحولات السردية التي تتولد في إطار برنامج معين، وذلك بفضل عمليات جمع وطرح و تحديد الجهات التي تعرِّف الأدوار العاملية.

بعبارة أخرى، إن إدراج مفهوم *الدور العاملي* انطلاقا من البنى العاملية من شأنه أن يتيح، وبشكل أكثر يقينا، تصور إمكانية تأسيس نحو سردي.

1–4– البنية العاملية:

حتى تكون حاضرة في الخطاب السردي، فالبنية العاملية بحاجة إلى وساطة الأدوار العاملية المصنفة والمعرفة بشحنتها الجهية ووضعيتها التركيبية، والتي هي وحدها القادرة على أن تشمل مجموع الخطاب وتفعِّله.

بدءا ومن غير أن نسعى إلى تحديد الوضعية البنيوية *للممثل*، واعتمادا فقط على مفهومه البسيط كـ" شخصية" دائمة [الحضور] على طول الخطاب السردي، بإمكاننا أن نأمل في أن استعمال مفهوم *الدور العاملي* سيسهم في الكشف عن ملاحظة بسيطة وهي انعدام التطابق بين العاملين والممثلين (بحيث يمكن للدور أن يتمظهر من خلال عدة ممثلين، وعلى العكس، بإمكان الممثل أن يجسد عدة أدوار في ذات الوقت)، وهي الملاحظة التي إذا ما اكتفينا بها فلن تكون سوى إثبات لفشل نظرية تزعم أنها نظرية تفسيرية. بعض من الأمثلة سيمكننا وبشكل ميسّر من موضعة مشكلة عدم التطابق هذا.

أ– إن فحص العامل–الموضوع سيتيح لنا، فضلا عن ذلك، التمييز بين نوعين من المواضيع: المواضيع المشحونة بـ"قيم موضوعية" والأخرى التي تحوي "قيما ذاتية". على الرغم من الترميق الاصطلاحي الفاضح إلا أن هذا التمييز يقوم على معيار بنيوي، [يتعلق] بصيغة المنح التي تتحقق في [المواضيع] الأولى وفقا للـ (ملكية) وفي الثانية تبعا للكينونة. علاوة على هذا المعيار، علينا أن نضيف معيارا آخر متمثلا في تمظهرها العاملي في الخطاب: بينما تحضر المواضيع المشحونة بـ"قيم موضوعية" في الخطاب

في شكل ممثلين متفردين ومستقلين (الطعام أو الأطفال في [حكاية] *الإبهام الصغير*[10])، فإن المواضيع ذات القيمة الذاتية تتمظهر عبر ممثلين هم في ذات الوقت ذوات ومواضيع معا (فالإبهام الصغير، بعدّه ممثلا، هو، في الوقت نفسه، ذات- بطل وموضوع التهام من طرف الغول المعيل لكل أفراد العائلة). إذن، بإمكان الأدوار العاملية أن تتوزع على الممثلين بشكل منفصل أو متصل.

ملاحظة: وقياسا على ذلك، يمكن للقيم الموضوعية أن تتضاعف مرتين أو ثلاث في ذات الحكاية (طعام وأطفال) وأن تكون مجسدة في ممثلين ثانويين منفصلين، يرعون فيما بينهم علاقات ترابط تركيبي (غياب الطعام يعلّل فقدان الأطفال).

ب-يمكن للأدوار العاملية التي تعرّف كفاءة الذات أن تتمظهر إما عبر الممثل نفسه الذي هو الذات نفسها أو عبر ممثلين منفصلين. في هذه الحالة الأخيرة، سيتحدد الممثل المتفرد من خلال وضعيته الملحقة، تبعا لمدى توافقه مع الإشارة الإيجابية أو السلبية، فقد [يكون] تارة مساعدا وطورا معارضا.

ت-يمكن للمرسل إليه أن يكون ذاته المرسل (كذلك بطل مسرحيات كورناي الذي "يوجِب على نفسه أمرا"). فالممثل سيكون مكلفا، وحده، بالجمع بين دورين عاملين.

ث-يمكن للذات والذات المضادة أن تجتمعا معا داخل الممثل نفسه وتخوضا "صراعا داخليا" إلى حد الموت (فاوست).

تبدو هذه الأمثلة القليلة دالة بما يكفي أن نقول إن كل عامل، كل دور عاملي قابل لأن يعبأ داخل ممثل منفصل ومستقل والعكس صحيح، وأن كل الفصلات الحاصلة على مستوى البنية العاملية يمكنها، بمعنى من المعاني، أن تفقد مفعولها من خلال وصل [مجموعة أدوار عاملية] داخل ممثلين أكثر فأكثر تعقيدا. وباستقطابنا لهذه الملاحظات، يمكن أن نتصور نظريا نموذجين للبنية التمثيلية الممكنة يقعان على طرفي النقيض: ا) يمكن للتمظهر التمثيلي أن يتوسع إلى أقصاه بحيث يكون لكل عامل أو دور عاملي ممثل مستقل. (يعدّ القناع، على سبيل المثال، ممثلا تحدد

[10] يشكل الأطفال موضوعا غذائيا يسعى الغول إلى الحصول عليه حتى يطعَم و يطعِم أفراد عائلته.

دوره العاملي في خاصية الظاهر [مقابل خاصية الكينونة])، نقول في هذه الحالة إن *البنية التمثيلية* موضَّعَة[11].

ب) يمكن للتوزيع التمثيلي أن يتقلص لأدناه فيختزل في ممثل واحد يضطلع بكل الأدوار العاملية الضرورية. (مما يولد حالة من مسرحة داخلية مطلقة [يتولى فيها ممثل وحيد أداء كل أدوار المسرحية]). في هذه الحالة تكون البنية التمثيلية مذيّتة[12].

بين هذين الطرفين تتموقع التوزيعات التمثيلية ذات المنحى الموضِّع[13] والمذيِّت[14] والتي تمثل، فيما نعتقد، أغلبية الحالات. على فرض أن جردا للبرامج السردية قد حصل (قضايا تدريب [الذات الفاعلة لتمكينها من التأهيل] واجتيازها [للاختبارات] والتي تتجمع حول الاختبار التأهيلي، وقضايا التعرف التي تتمحور حول الاختبار التمجيدي، إلخ) وأن تعدادا للأدوار العاملية لكل مسار سردي قد أنجز، فإن التوزيع التمثيلي لهذه الأدوار يمكن أن يستغل كمعيار تصنيفي في سبيل بلورة نظرية عامة للأجناس.

2- البينات الخطابية

1.2- كيف نتعرف على الممثلين.

إذن، بعد ان انطلقنا من التمفصلات الأساسية للمخيال، مقترحين البنيات الأولى –التركيبية والنظمية– لتنظيم [الخطاب]، وصلنا شيئا فشيئا، عن طريق الاستنباط، إلى تمثل الخطاب السردي وقد غطته شبكة كثيفة نسبيا من الأدوار العاملية متجلية، تارة بطريقة فصلية وأخرى وصلية، في ممثلين يمكن أن نعدّهم عناصر من الخطاب. [وعليه] يتعذر علينا أن ننكر أهمية هذه النماذج العاملية، لأسباب نظرية، أولا: [إذ] تشكل محاولة لبيان الهيئات [المفعّلة للدلالة] ومسارات المعنى المولّدة للخطاب، ولأسباب عملية أيضا: [إذ] يجب أن نعتبرهم كنماذج استشرافية، كفرضيات في شكل تمفصلات منطقية، من شأنها، حين إسقاطها على النصوص، أن تزيد من القَروئية.

[11] اسم مفعول للفعل وضّع، أي جعل الأمر موضوعيا.
[12] اسم مفعول للفعل ذيّت، أي تحويل نحو الذاتية
[13] اسم فاعل للفعل وضّع
[14] اسم فاعل للفعل ذيّت

مثل هذا [الأمر] ما كان ليحول دون أن يجد الباحث نفسه، حين مواجهته لنص [ما]، متضايقا من عدم امتلاكه الإجراءات الموضوعية التي تتيح له اعتماد خيارات ضرورية والتعرّف على عناصر الخطاب الملائمة سرديا (في حالتنا هذه الأمر يتعلق بالممثلين). فالفارق بين ما يعتقد أنه علم بكيفية وجود البنيات السردية وبين تقنيات القراءة التي هي بحوزته لا يزال معتبرا: فالعجز النسبي المتعلق بـ*التحليل النصي*[15] الذي يدّعي أن بإمكانه أن يكون عمليا دون أن يولي اعتبارا لمعرفته السردية الضمنية، لا يقل دلالة عن المصاعب التي تعانيها البنائية الاستنباطية[16] في محاولتها للتعلق بالتمظهر السردي [للنص]. بتخلينا المؤقت عن الإجراء الاستنباطي المتموقع في الإطار السردي، سنحاول أن نقارب، مجددا، المشكلة انطلاقا من اعتبارات عامة متعلقة بالتمظهر اللساني.

2-2-صور وتصويريات[17]:

فيما يبدو لنا، أن ضعف نتائج التحليل النصي، في بحثه عن إقامة إجراءات للتعرف على ممثلي الخطاب من بين عدد لا متناه من العوامل التركيبية لملفوظاته وللتعريف في الوقت ذاته بالممثلين في ثباتهم وتحولاتهم، متأت من أنه موضَعَ تقصياته على مستوى سطحي جدا من تركيب العلامات. والحال أننا، ومنذ يلمسلف Hjelmslev[18]، نعلم أنه لا يمكننا أن ننجز شيئا

---

[15] تحليل نص يقتضي تقسيمه إلى وحداته الأساسية الصغرى وتحديد العلاقة فيما بينها، لإعادة تمثله عبر خطاطة شاملة، في محاولة لتبيان كيف ان معنى الوحدات الكبرى (جملة، نص) يتولد من اندماج الوحدات الصغرى في علاقات تركيبية وأخرى نظمية.

[16] البنائية نظرية التعلم التي طورها Piaget، في رد فعل على البيهافيورزم الذي حدد عملية التعلم في ظاهرة المثير – الاستجابة. فالبنائية تفترض أن المعارف المتعلقة بأي موضوع ليست نسخة مطابقة للواقع، ولكنها إعادة بناء لهذا الواقع. والبنائية الاستنباطية تسعى إلى دراسة آليات بناء معرفة عن واقع ما من خلال عناصر معرفة سابقة مخزنة في ذاكرة الإنسان. ولها في ذلك مراحل عدة، تبدأ بطرح الإشكالية، ثم فرضية لتعليلها تقوم على خبرة الدارس، بينما تقتضي المرحلة الثالثة فزر صحة هذه الفرضيات من خلال منهج علمي يقوم على حقائق ابستمولوجية وطرائق حجاجية، لنخلص في المرحلة الأخيرة إلى خلاصة تقنن هذه المعرفة.

[17]- حتى نفهم وظيفة الصور في أي نص، بإمكاننا أن نبدأ بملاحظة العناصر البسيطة المشكلة لها، مثل الليكسم، أي الكلمات التي يتولى قاموس لغة ما تعريفها. كل صورة تملك محتوى ثابتا وقابلا للتحليل إلى عناصر صغرى. وانطلاقا من هذه النواة، فهناك أنواع عدة من التحققات التي يمكن أن تتبلور من خلال الاستعمالات المختلفة لهذه الصورة. فالصورة هي وحدة المحتوى القارة والمعرّفة من خلال نواتها الدائمة، وهي القابلة في الآن نفسه أن تتمظهر في سياقات مختلفة وتحقق بذلك مسارات سيميمية متعددة. وهو الأمر الذي يقودنا إلى تأمل الصورة من جانبين مختلفين:

أ-الفهرس: يمكن أن نصف الصورة بكل دلالاتها الممكنة، مع كل مساراتها الممكنة كمجموعة منتظمة من الدلالات. وهو العمل الذي يقوم به القاموس في أية لغة. وهو الجانب الافتراضي في الصورة.

ب- الاستعمال: بإمكان اعتماد الصورة دلاليا وفق الاستغلال لأية إمكانية من إمكاناتها الدلالية (النووية أو السياقية). وهو الجانب التحققي في الصورة.

-التصويرية Configuration هي مجموعة مسارات تصويرية ممتدة على المستوى المركبي للخطاب

[18] لويس يلمسلف (كوبنهاجن، 1899/10/03-1965/05/30)، لساني دنماركي، طور لسانيات دوسوسير بتأسيسه للكلوسيماتيك، أي اللسانيات الرياضية، من أهم كتبه: مبادئ في النحو العام 1928. لقد فضل لويس يلمسلف أن يستعيض عن ركني الدلالة عند دو سوسير (الدال والمدلول) بمفهومين جديدين (التعبير والمحتوى) يمنحان حركية سيميائية دعاها يلمسلف بالوظيفة السيميائية المتجلية في العلاقة

جديدا في اللسانيات ما لم نتخط هذا المستوى، ما لم نفصل ما بين بعدين؛ بعد الدال وبعد المدلول، ثم نعمل على سبر الوحدات الأصغر والأعمق لكل بعد على حده، [الأمر متعلق هنا بتلك الوحدات] المسماة *الصور*.

فالتحليل السردي الذي نتعرض له يتموضع كلية وبالضبط في مستوى المدلول، وما الأشكال السردية سوى تنظيمات خاصة للشكل السيميائي للمحتوى الذي تحاول نظرية السرد أن تبينه. إذن ستكون مهمة نظرية الخطاب التي نذكِّر بضرورتها الاستعجالية استكشاف الأشكال الخطابية ومختلف صيغ تمفصلاتها قبل الانتقال إلى النظرية اللسانية stricto sensu[19]. في الوقت الراهن، ما يبدو الأصعب تحقيقا هو هذه الوساطة النظرية بين الأشكال السردية والأشكال اللسانية ذات الأبعاد الجملية.

وبناء عليه، فلتكن بدايتنا عودا على المشاكل الدلالية البحتة. في الواقع، إذا كان مفهوم *العامل* ذا طبيعة تركيبية، فإن مفهوم الممثل يبدو، من أول وهلة على الأقل، غير متعلق بالتركيب، بل بالدلالة. فالممثل لا يتحرك كعامل إلا إذا تكفّل به التركيب السردي أو التركيب اللساني. بالنسبة لاستعمالاته التركيبية، فإنه في وضعية شبيهة بوضعية الليكسيم[20] الاسمي الخاضع لكل مناورات التركيب [كأن يكون تارة فاعلا وأخرى مفعولا].

فالفحص الدلالي للكسيم (ليكن اللكسيم *رأس* مثلا والذي كان موضع تحليل في *الدلالة البنيوية*)[21] يظهره لنا مجهزا بنواة مستقرة نسبيا، [أي] *بصورة* نووية تتبلور، انطلاقا منها، مجموعة افتراضات، مجموعة مسارات سيميمية تسمح بوضعها في السياق أي بتحققها الجزئي في الخطاب. ومن ثم، فإن اللكسيم هو تنظيم سيمي افتراضي لا يتحقق مثلما هو في الخطاب إلا في حالات نادرة (حين يكون اللكسيم أحادي السيميم[22]). إن كل خطاب يضع تشاكله الدلالي الخاص، لن يكون سوى استغلال جزئي للافتراضات الكثيرة التي يمنحها له القاموس اللكسيمي؛

الجدلية بين التعبير والمحتوى. فإذا كانت العلامة إذن تتكون من دال ومدلول، فإن عالم الدواليل يشكل حيز التعبير بينما يشكل عالم المدلولات حيز المضمون. في كلا الحيزين، ثم أدخل يلمسلف تمييزا يمكن أن يكون ذا أهمية في دراسة العلامة السيميولوجية وليس فقط العلامة اللسانية؛ فكل حيز يتضمن طرفين هما الشكل والجوهر.

[19] عبارة لاتينية تفيد "المعنى الدقيق"

[20] الليكسيم، أي الكلمات التي يتولى قاموس لغة ما تعريفها.

[21] في كتابه الصادر عام 1966 والمعنون بـ" الدلالة البنيوية"، وفي معرض تمييزه بين السيم والسيميم، راح غريماس يضرب مثلا باللكسيم "رأس" الذي تعني نواته السيمية "طرف" بينما يدخل في مقطع "رأس شجرة" السيم السياقي "العمودية".

[22] السيميم هو المحتوى السيمي لليكسيم (مجموعة السمات التي تشكل مدلول هذا الليكسيم. إذا كانت السيمات س1، س2،س3...س ن، تشكل محتوى الليكسيم أ، فإن السيميم س لـ أ هو س= (س1، س2، س3...س ن). هكذا يكون سيميم الكرسي ("للجلوس"، "له أرجل"، "له مقعد"، "دون مسند").

إذا واصل [الخطاب]مساره فإنه سيبرحه وقد نثر [على جانبيه] صورا من العالم كان قد طرحها، لكنها تظل تحيى وجودها الافتراضي، جاهزة لأن تنبعث من جديد عند [بــذل] أبســط جهــد لتذكرها.

فالبحوث التي انصبت على استكشاف " الحقول المعجمية" قد وضعت موضع البداهة هذه الشحنة الكامنة في الصور اللكسيمية: سواء أوصفت في إطار المعجم (مثال اللكسيم *عين* الــذي كان موضع تحليل من طرف Patrick Charaudeau)[23] أو كانت مستخلصة من نص متجــانس (مثال *القلب* في كتاب Jean Eudes والذي كان موضع درس من طــرف Clément Légaré)[24]، فإننا نلاحظ فورا أن هذه الصور ليست موضوعات منغلقة على ذاتها، بل قد تُمــدِّد، فــي أيــة لحظة، مساراتها السيميمية بالتقائها وتعلقها بصور أخرى تشبهها، مشكلة بذلك ما يشبه كوكبات تصويرية لها تنظيمها الخاص. إذن، وكمثال مألوف على ما أوردنا، فإن صورة *الشمس* تــنظم حولها حقلا تصويريا يضم *أشعة، ضوء، حرارة، هواء، شفافية، عتامة، سحب*، الخ. مثل مثــل هذه المعاينة تقودنا لأن نقول إذا كانت الصور اللكسيمية تتمظهر، نظريا، في إطار الملفوظات، فإنها بيسر تتجاوز هذا الإطار لتنسج شبكة من العلاقات الصورية تمتد على طول مقاطع كاملة مشكلة بذلك *تصويريات خطابية*.

فإذا كانت نظرية الخطاب لا ترغب في أن تصبح ملحقة باللسانيات الجملية، فإن عليها ألا تقلل من أهمية هذه الظاهرة: فالتصويريات التي هي موضوعنا ليست سوى صــور الخطــاب (بالمعنى اليملسلفي لهذا المصطلح)؛ متميزة بذلك عن الصور السردية وعن الصور الجملية معا، إنها تؤسس بذلك، على الأقل في جزء منه، خصوصية الخطاب كشكل [مــن أشــكال] تنظــيم المعنى.

إن التعرف بل ومنح التصويريات الخطابية وضعية بنيوية خاصة يتيح لنا منذ الآن تجميع عدد معين من الإشكالات التي تبدو متباينة، لأول وهلة.

---

[23] Patrick Charaudeau أستاذ علوم اللسان بجامعة باريس 8، اهتم في بدايات مشواره العلمي باللسانيات "اللغة والخطاب، عناصر سيميولسانية"، منذ سنوات أولى عناية خاصة بالإعلام "التلفزيون والحرب"، وفي السنوات الأخيرة استقر هاجسه العلمي على الجانب السياسي "الخطاب السياسي، أقنعة السلطة"

[24] Jean Eude قس فرنسي (1601/11/14-1680/08/19) من مؤلفاته "القلب الرائع، كتيبات عن قلوب اليسوع"، وقد تناول لكسيم (القلب) بالتحليل Clément Légaré في كتاب بعنوان "الدلالة البنيوية. لكسيم القلب في أعمال جان أود" 1976

على سبيل المثال، نحن نعلم أن التحليل السردي للحكايات العجيبة يترك، معلقة، إشكالية الموتيفات[25]، وهي تلك المقطوعات المتحركة، التي يمكن أن تعوض بعضها بعضا في داخل الوظائف السردية نفسها، والتي أيضا تتولى وظائف متنوعة، فتبدو روايات مستقلة، أو حكايات منفصلة. فالتمييز بين المستويين السردي و التصويري للتنظيم السيميائي، يمكّننا، نظريا، من تجاوز هذه الإشكالية، فنسم الحكايات بالثبات البنيوي بينما نصف الموتيفات بالهجرة التناصية.

إن معرفة أفضل بالتصويريات الخطابية يتيح أيضا وبدقة أكثر موضعة المشروع العلمي الذي تقوم عليه أعمال عالم النحو المقارن Georges Dumézil[26]. ويتمثل رهان هذا الأخير في بلورة *ميثولوجيا مقارنة*[27]: ويرتكز أساسا على نقل الإجراءات المنهجية من مستوى الدال إلى مستوى المدلول، وأيضا على توسيع أبعاد الوحدات قيد التحليل، الأمر الذي يعني أن نستبدل الدراسة المقارنة للفونيمات[28] المجتزأة من مجموع المورفيمات[29] القائمة داخل مدونات، بدراسة مقارنة للتصويريات الخطابية داخل خطابات ميثولوجية. وعليه يمكن للمستوى الخطابي للبحوث أن يتموضع في إطار الاقتصاد العام للسيميولوجيا. في مجال مختلف، مجال البحث التيماتيكي، تُبرِز عدة أعمال، انطلاقا من[30] Gaston Bachelard وإلى [31]Jean-Pierre Richard، نفس هاجس استكشاف المسارات التصويرية النافذة عبر الخطابات. على الأكثر، يمكننا أن نآخذ Bachelard على مسلمته، شبه الضمنية، [المتعلقة بـــ] كونية التصويريات التي يسعى لتوصيفها: فيما يمكن للبنى السردية، على العموم، أن تعدّ بمثابة خصائص المخيال الإنساني، فإن التصويريات

[25] الموتيف Motif يظهر كوحدة من نوع صوري، لها معنى مستقل عن المعنى الوظيفي للحكاية ككل، إذا اعتبرنا البنية السردية للحكاية ثابتة، تتقدم الموتيفات كمتغيرات.

[26] Georges Dumézil (1898/03/004-1986/10/11) هو عالم لغوي اهتم بالدراسات المقارنة، كان له الأثر الأكبر في إدراج القراءة البنيوية للأسطورة، فاستلهم ليفي ستروس وميشال فوكو الكثير من أفكاره في دراساتهم البنيوية الفلسفية والأنتروبولوجية.

[27] في كتابه "الآلهة عند الهند أوربيين" 1941، راح ديموزيل يدرس المجتمعات والديانات الهندأوربية، من خلال نصوص أسطورية ودينية قديمة ، فخلص إلى أن كثيرا من الحكايات النابعة من هذه النصوص تنتظمها بنى سردية قائمة على ثلاث وظائف: وظيفة المقدس، وظيفة المحارب، وظيفة الإنتاج والإخصاب.

[28] Phonème الوحدة الصوتية الصغرى يعدّ أساس التحليل الفونولوجي الحديث الذي ينطلق من الجزئيات الصوتية المعزولة إلى النظام والبنية الصرفية-الدلالية.

[29] Morphème مقطع مكون من فونيمات مرتبة ترتيبا معينا بحيث يشكل وحدة صرفية دالة.

[30] فيلسوف فرنسي (1884-1962) اهتم بالعلوم والشعر، إبيستمولوجي مرموق، صاحب نظرية "التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية" حيث يدرس المعيقات الانفعالية التي تحول دون أن يتقدم دارس العلوم في معرفة الظواهر. من أهم كتبه "الروح العلمية الجديدة"، "الماء والأحلام"، "المادية العقلانية"..الخ

[31] كاتب وناقد فرنسي (1922-...) ركز في أبحاثه على العوالم المادية والحسية التي تربط بين المبدع والتجربة الحميمة مع العالم، بحثا عن اللحظة الأولى للإبداع الأدبي، من أهم كتبه التي تناول فيها هذه القضية " الشعر والأعماق"

الخطابية –موتيفات وتيمات–[32] على احتمال شموليتها وهجرتها العابرة للألسن، إلا أنها خاضعة لتصفية [تضفي عليها] نسبية تربطها بالفضاءات والأمم السيميوثقافية.

ها هي ذي مجموعة من الوقائع التصويرية – لم نذكر سوى الأكثر تميزا منها– التـــي علينا جمعها وضبطها حتى نعطيها صياغة سيميائية متجانسة وحتى نجعلها مطابقة لمقتضـــيات النحو السردي.

2–3–الأدوار التيماتيكية[33]:

إن التعرف على المستويين الاثنين –السردي والخطابي– المستقلين والمتشابكين [في آن واحـــد] يبرز جيدا السيرورة الغامضة للذات الساردة المدعوة إلى أن تسلك فـــي آن واحـــد المســـارين التركيبيين المفروضين عليها: من جهة [مسار] البرنامج السردي المحدد بتوزيع الأدوار العاملية، ومن جهة أخرى، فإن هذه الذات الساردة ملزمة نسبيا بإتباع تسلسل تصويري سنته تصـــويرية خطابية أو اقترحته صورة بالكاد وضعت.

والحال أن هذين النوعين من المسارات، مع أنهما متوازيان ويمكن التنبؤ بهما بطريقة ما، فإنهما من طبيعة مختلفة. فالأول هو برنامج تم اختياره عن وعي في إطار من النحو السردي؛ [بينما] يتعلق الثاني *بمعجم خطابي*، [أي] بجرد للتصويريات المشكّلة انطلاقا من عوالم جماعيـــة و/أو فردية مغلقة. في الواقع، ومثلما [يتكون] المعجم الجملي من قائمة من الصور الليكسيمية [بحيث] تحوي كل واحدة منها تعدادا للإمكانيات السيميمية التي تؤهلها لأن تتموضع في سياقات محدودة العدد، فإنه يجوز لنا أن نتصور معجما خطابيا بمثابة مخزون من "تيمات" أو "موتيفات" تشكلت عبر استعمالها، ولغرض استعمالها من طرف من يتقاسمون عالما دلاليا واحدا. (حيـــث تتمثـــل أصالة هذا المعجم في تحديد المسارات التوليدية الممكنة والتي لم تتحقق بعد).

لأنه يجب ألا ننسى أن التصويريات ليست سوى "أشكال المحتوى" الخاصة بالخطاب: وعليه فإن التمظهر الخطابي للسردية، وانطلاقا من هذا المنظور، ما هو إلا إدماج داخـــل الموضـــوعات السردية المتولدة عن النحو السردي، *لمركبتها الدلالية* المقدَّمة، صحيح، في شـــكلها التركيبـــي

[32] Thème يستعمل التيم في علم الدلالة الخطابي للدلالة على توزيع القيم على امتداد البرامج والمسارات التي سبق لها أن تحينت (القيم في اتصالها بالفواعل) بواسطة علم الدلالة السردي.

[33] يفهم من الدور التيماتيكي تحويل أو اختزال مجموعة من الوحدات الوصفية و/أو الوظيفية إلى فاعل يتبناها كتعابير مضمرة وممكنة.

والتي تبلورت سلفا كشكل وليس كجوهر المحتوى. فمن نتائج الوصل بين البعدين –السردي والخطابي– وضع المحتويات في الأشكال النحوية التي قعَّد لها السرد، مما يتيح توجيه رسائل سردية ذات معنى.

إن ظهور الخطاب كشكل متبلور للمحتوى متمظهرا في تصويريات ذات طابع تركيبي، ما كان ليضع حدا لمشكلة تنظيمها البنيوي. من [عرضنا] لبعض الأمثلة التي تبدو متباينة لأول وهلة، بإمكاننا أن نستشف حلا [لتلك المشكلة] أو [أن نحدد] على الأقل اتجاهات بحثية يمكن انتهاجها.

فمثلا، إن مفهوم التصويرية الخطابية هو الذي يمكّننا من أن نبرز الطريقة التي يظل من خلالها التشاكل الطبخي متماسكا في أسطورة أصل النار عند البوروورو[34]، والتي سعينا في موضع آخر[35] إلى تحليل تنظيمها التركيبي، وذلك على الرغم من التغيرات التشاكلية التي تطبع كل مقطع: إن تصويرية خطابية واحدة هي التي تمتد على طول الخطاب الأسطوري، ولكن مع تمفصل *للمقاطع الصورية* وتقطيعها تارة وفقا للممثلين–المستهلكين للطعام، وأخرى وفقا لموضوع الاستهلاك ذاته، وأخيرا وفقا لمنتجي النيئ والمطبوخ (*النار والماء*). فنخلص إلى أن التصويرية الخطابية تنتظم حسب الخطاطة المناسبة للملفوظ (مرسِل موضوع مرسَل إليه)، فكل مصطلح من هذه الخطاطة قابل لأن ينتج مسارا تصويريا مستقلا. إن هذا الإسهام للتصويريات في التنظيم التركيبي للخطابات [من شأنه أن] يضيء جزئيا فصلا من فصول ما ندعوه أحيانا بالأسلوبية الكلية[36].

ولكن خاصية بنيوية أخرى للتصويريات – [متمثلة في] التعدد السيميمي للصور المشكلة لها– هي التي، وبالرجوع إلى نصوص أخرى، تتيح لنا فهم كيف، على سبيل المثال، أن اختيارا لصورة متعددة السيمات، والتي تقترح افتراضيا مسارات تصويرية عدة، بإمكانه أن يمنح

[34] Bororo هو اسم لقبيلة أمازونية بالبرازيل، كانت موضع دراسة من طرف الأنتروبولوجي الفرنسي كلود ليفي ستروس في كتابه " المدارات الحزينة".

[35] تناول غريماس في كتابه "في المعنى" 1970، نمط حياة قبيلة البرورو وفق تركيبات سردية تقوم على أدوار عاملية تتمحور حول إشكالية التبادل.

[36] Macrostylistique: ويعني بها الأسلوبية التي تتجاوز في تحليلها إطار الجملة إلى النص.

الفرصة *لتنظيم الخطاب متعدد التشاكل*[37]، على شرط أن تكون الألفاظ الصورية المنبثقة أثنـاء التحقق غير متناقضة.

في حالات أخرى، وبالعكس، فإن أي تردد طفيف في اختيار هذه الصورة المحملة بدور محـدد أو تلك الصورة، بإمكانه أن يسبب ظهور مسارات تصويرية متباينة إلا أنها متوازية. فتحقيـق هذه المسارات التصويرية [من شأنه أن] يدخل إشكالية *المتغيرات*: أيا كانت الصـورة المهيـأة لتمثيل المقدس[38]، سواء أكانت صورة القس[39] أم خادم الكنيسة[40] أم قوّاس الكنيسة[41]، فإن تأثيرها سيمتد إلى السيرورة التصويرية لكل المقطع؛ بحيث إن أشكال الأفعال والأماكن التي يجب على هذه الصورة أن تتموضع فيها، والتي تكون، كل مرة، مطابقة [لنفس] الصورة المختـارة فـي البدء، تكون مختلفة بعضها عن بعض. باستقطابنا لهاتين الظاهرتين، يمكننا القول إنه، في حالة التشاكل المتعدد، فإن صورة وحيدة في البدء تعطي إمكانية تطويرات دلالية متراكبة في خطاب واحد. في حالة المتغيرات المتعددة، فإن التنويع التصويري، المحكـم والمنضـبط بالحضـور المضمر لدور وحيد، لا يحول دون أن تواصل دلالةٌ قابلةٌ للمقارنة إلى حد التطابق، [تبلورهـا] في عدّة خطابات جلية.

فيما نرى، تكمن أهمية المثال الأخير، بالخصوص، في ظهور *دور تيمـاتيكي* وحيـد بصـور مختلفة؛ لأن المشكلة المطروحة في إطار النظرية السردية، خاصة في مركبتها العامليـة، هـي معرفة ما إذا كان للتصويريات الخطابية أن تخضع للتحليل البنيوي، وفي حالة الإيجـاب التـي يبدو أنها الأكثر تجليا، فإن هذا التحليل يمكنه أن يستخلص عناصـر اسـمية منفصـلة قابلـة لمواجهتها ومطابقتها كلمة كلمة بالأدوار العاملية. والحـال هـذه، فـإن الاختـزال المحتمـل للتصويريات إلى أدوار خطابية بإمكانه أن يقدم هذه الخدمة المرجوة .

---

[37] Isotopoie التشاكل ويضمن التحام الرسالة أو الخطاب، وهي بمثابة المستوى المشترك الذي يرد ممكنا اتساق المضامين، ينبغي أن يفهم من المستوى المشترك ثبات بعض الأدلة، على مستوى الجملة، يمكن أن يتجدد ثبات دلالة واحدة أكثر من مرة على امتداد السلسلة الجملية ليعطي تشاكلا يؤدي إلى التحام مجموعة من السيميمات التي تشكل الجملة.

[38] Sacré المقدس وهو مفهوم أنتروبولوجي يتيح للمجتمع الإنساني إقامة حد فاصل بين مختلف العناصر المشكلة لعالمه: الأشياء، الأفعال، الفضاءات، الجسد، القيم...الخ، وفقا لمعتقدات تعززها طقوس مختلفة.

[39] Prêtre القس هو رجل مسؤول عن خدمة الطقوسية ، يترأس مراسم بعض الطوائف الدينية.

[40] Sacristainهو من يتولى رعاية الخزانة وهي مرفق كنيسة القس حيث يستعد للاحتفال الجماهيري ، ويحوي الملحق كل الأشياء المقدسة (لباس، مزهريات، صور، تماثيل، شموع...الخ).

[41] Bedeau رجل من خارج المؤسسة الكنسية يتولى الخدمة المادية للكنيسة، من شأنه أن يتقدم القس أو جامع المال حتى يفسح لهم الطريق.

في الأمثلة المتناثرة عشوائيا عبر هذه التأملات – *عين، قلب، شمس، نار، خادم الكنيسة*– كل شيء يحدث وكأن *الصور الاسمية* (اسمية لأنها مجهزة بسيم "كوني" يتيح لنا أن نعدّها *أشياء* في مقابل *السيرورة*[42]) كانت حاملة لافتراضات لا تدعنا نتوقع تحققاتها السيميمية الجملية فحسب، وإنما [نتوقع] أيضا الشبكات المحتملة لمسنداتها[43] التصويرية؛ [كأن نتوقع] موضوعات تصويرية ممكنة تسعى إليها إذا كانت متموقعة في وضعية الذات، أو [نتوقع] ذوات بمقدورها أن تحركها كمواضيع.

فإسقاط هذه الافتراضات على تشاكل تصويري ما، مع ما يتيحه من تمظهر مسهب لها طوال الخطاب (أو في مقطع منه)، إلا أنه يفرض عليها شيئا من الانضباط حين لا يسمح إلا بتحقق بعض من المسارات التصويرية، بينما تقصى مسارات أخرى [حيث تظل] معلقة. مع مراعاة الفارق، فإن التصويرية الخطابية تناسب الدور التيماتيكي في إطار الخطاب، مثلما يوافق الليكسم السيم في إطار الملفوظ.

[صحيح أن] الملاحظة واضحة لكنها غير كافية: إذا كانت التصويرية تضم في داخلها كل الصور – اسمية، فعلية، أيضا ظرفية، كالمكان والزمان– التي هي قادرة على الربط بينها؛ فإن فالدور التيماتيكي ليس سوى صورة اسمية. إذا أمكننا الادعاء بأن الدور التيماتيكي يشمل، بمعنى من المعاني وفي حدود ما يفرضه تشاكل الخطاب، كل الصور غير الاسمية لتصويريته، فذلك بفضل خاصية أخرى من خصائصه البنيوية. علاوة على أنه *"تيمة"*، فهو أيضا *دور*، وعلى المستوى اللساني، يمكننا أن نجد له معادلا بنيويا في *اسم الفاعل* الذي هو في ذات الوقت اسم (= صورة اسمية) وفاعل (= دورشبه تركيبي). فالليكسيم *صياد*، على سبيل المثال، هو صياغة سطحية كثيفة جدا: فهو يعني ذلك الذي يمتلك كفاءة محدودة بفعل معين قابل للاتساع، إذا تمت تجليته فإنه يستطيع أن يغطي مقطعا خطابيا طويلا؛ ولكنه في ذات الوقت، يحافظ، في هذا المستوى على الأقل، على خاصيته الدلالية؛ فهو قادر على أن يحتل مواقع عاملية متنوعة في كلا النحوين اللساني والسردي.

إذن *فالدور التيماتيكي* يعرف باختزالين: فالأول هو اختزال للتصويرية الخطابية في مسار تصويري واحد متحقق أو يمكن تحققه في الخطاب، والثاني هو اختزال لهذا المسار في فاعل

[42] الأشياء= السكون، السيرورة= الحركة

[43] يعدّ المسند كوظيفة من بين الوظائف التركيبية المشكلة للملفوظ ويناسب الفعل.

كفء يشمل [المسار] افتراضا. كل *صورة* تصادفنا في الخطاب، حين تكون محملة بدور تيماتيكي في ظروف يجب تحديدها، يمكن أن تكون موضع تحليل ووصف، حسب الحاجة، إما كتصويرية شاملة، أو كمسار تصويري مغلق في العالم الخطابي.

فصورة *الصياد* المتمظهرة في الخطاب في شكل دور تيماتيكي (نفكر خصوصا *بالصديقين* لموباسان)[44] تبدو لنا مثالا جيدا يتيح لنا ربما تجاوز الحدود التي تفصل، لأول وهلة، بين صور المعجم، المثبتة من خلال الاستعمال، والتي نظريا يمكن أن تكون مسننة[45]، وبين صور في حالة تشكل كشخصيات الرواية مثلا. *الصياد* يحمل في ذاته، بداهة، كل إمكانيات فعله، كل ما يمكن أن ننتظره منه فيما يتعلق بالسلوك؛ فوضعه في تشاكل خطابي يجعل منه دورا تيماتيكيا يمكن للحكاية أن تستعمله.

إن الشخصية الروائية، مثلا، وعلى فرض إدراجها بمنحها اسم علم، تُبنى تدريجيا من خلال مؤشرات تصويرية متتابعة ومنتشرة على طول النص، ولا تبين عن صورتها الكاملة إلا في الصفحة الأخيرة، وذلك بفضل عملية التذكر التي يجريها القارئ. يمكننا أن نستبدل عملية التذكر هذه، والتي هي ظاهرة ذات طابع نفسي، بالوصف التحليلي للنص (=*قراءته* بما يعنيه من فعل سيميائي) الذي حتما سيتيح لنا أن نستخلص التصويريات الخطابية التي منها يتشكل النص، وأن نختزلها في أدوار تيماتيكية يقع عبؤها على النص ذاته. وحين نتموقع من وجهة نظر إنتاج النص، فإننا نجد أنفسنا ملزمين بإتباع إجراء عكسي، وبمنح الأولوية المنطقية للأدوار التيماتيكية التي تستحوذ على الصور وتطوِّرها إلى مسارات تصويرية تحوي ضمنا كل التصويريات الافتراضية للخطاب المتمظهر.

إذن، من اليسير أن نخطو خطوة أخيرة، وأن نقول إن اصطفاء *الأدوار التيماتيكية* التي تم الاعتراف لها بالأولوية المنطقية على التصويريات، لا يمكنه أن يتحقق إلا بواسطة النهايات التي تؤول إليها موضعة البنى السردية، يعني *الأدوار العاملية*. إن وقوع الأدوار التيماتيكية على عاتق الأدوار العاملية من شأنه أن يشكل الجهة الوسيطة التي تهيئ عبور البنى السردية إلى البنى الخطابية.

---

[44] قام غريماس بدراسة سيميائية لمفهومي الحرب والثأر في قصة (الصديقين) لموباسان، صدرت الدراسة عن دار Seuil، عام1976

[45] Code سنة جمعها سنن

ملاحظة: من البديهي أن إدراج مفهوم *الدور التيماتيكي* لن يمنع من إثارة صعوبات جديدة معتبرة، [إذ] إن كل اختصاص – علم النفس، علم النفس الاجتماعي، علم الاجتماع– سيقدم فهرسه الخاص بالأدوار. فضلا عن ذلك، فإن التمييز الذي اقترحناه بين " الشكل السيميائي" و" الشكل العلمي" يمكن أن يُستعمَل هنا للتمييز بين النموذجين الاثنين "للأدوار". إن أعمال Claude Bremond[46]، في هذا المعنى، تستحق أن تسترعي كل اهتمامنا.

3- خلاصات

إن النقد الذي أتينا على توجيهه للإجراء الاستنباطي يتيح لنا، ولو مؤقتا، تحديد مفهومنا لعملية سرد الخطاب. فالنحو السردي يولّد موضوعات سردية (=حكايات)، متمثلة في مسارات سردية مختارة بقصد التمظهر. تُعرّف هذه المسارات من خلال توزيع خاص للأدوار العاملية المجهزة بكيفيات[47] والمحددة بمواقعها الخاصة في إطار البرنامج السردي. فالموضوع السردي، باحتيازه لبنيته النحوية، يجد نفسه معبأ بمحتواه الخاص، وذلك بفضل تمظهره في الخطاب. إن التعبئة الدلالية تتحقق من خلال اصطفاء الأدوار العاملية للأدوار التيماتيكية والتي، من أجل تحقيق افتراضاتها، تستثمر المستوى المعجمي للغة وتتمظهر في شكل صور تمتد إلى تصويريات خطابية.

فالخطاب بالنظر إلى مستواه السطحي، يبدو، إذا، انبساطا تركيبيا موشّى بصور متعددة المعاني، مجهزة بافتراضات مضاعفةٍ ومجموعةٍ، غالبا، في [شكل] تصويريات خطابية متتابعة أو متناثرة. فقط بعض من هذه الصور القابلة للاضطلاع بأدوار عاملية، هي التي ستقوم مقام الأدوار التيمياتيكية: تحمل لحظتها اسم *الممثلين*. إذن فالممثل هو حيز التقاء ووصل بين البنى السردية والبنى الخطابية، بين المركبة النحوية والمركبة الدلالية، لأنه محمّل، على الأقل بدور عاملي، وعلى الأقل بدور تيماتيكي من شأنهما أن يحددا كفاءته وحدود فعله وحالته[48]. وهو في

[46] عالم سيميائي فرنسي (1929-...)، تركزت أعماله حول الجوهر التيمي في الحكاية الشعبية، مواصلا تأملات Propp حول بنيات الحكاية، مقترحا في النهاية النحو السردي.

[47] Modalités هناك ثلاث مقولات لكيفيات الفعل: كيفيات الإضمار: /وجوب الفعل/،/إرادة الفعل/، كيفيات التحيين:/قدرة الفعل/، /معرفة الفعل/، كيفيات التحقيق: إنها مرحلة الأداء الأساسي أين يحول العامل الفاعل الحالات.

[48] نعني الفعل والحالة في بعدهما السيميائي من حيث علاقتهما بالذات والموضوع، وما يحدثه الفعل من تحول ينقل الذات من حالة فصل أو وصل بالموضوع إلى عكسها.

ذات الوقت، الحيز الذي يحدث فيه استثمار هذه الأدوار، وكــذلك تحولاتهــا، بمــا أن الفعــل السيميائي، المتحقق في إطار الموضوعات السردية، يتمثل أساسا في لعبة امتلاك أو ضــياع أو تبادل القيم، [سواء أكانت] جهية أم أيديولوجية، فإن البنية العامليــة تبــدو،إذن، بمثابــة بنيــة طوبولوجية[49] : [إذ] مع أنها متعلقة بالبنيات السردية والبنيات الخطابية في ذات الوقت، إلا أنها لا تعدو أن تكون حيّز تمظهرهما، دون أن تنتمي لا إلى هذا ولا إلى ذاك.

ثبت المصطلحات (عربي – فرنسي)

معنى	sens
خطاب	discours
مركبة عاملية	composante actantielle
دور تيماتيكي	rôle thématique
ممثل	acteur
ملفوظ سردي	énoncé narratif
تصديق	véridiction
صورة	figure
تصويرية	configuration
نحو سردي	grammaire narrative
تشاكل	isotopie
سيم	sème
ليكسيم	lexème

[49] Topologie: هندسة لا كمية، وهي فرع من الرياضيات يعنى بدراسة موقع الشيء الهندسي بالنسبة إلى الأشياء الأخرى، لا بالنسبة لشكله وحجمه.

سيميم	sémème
حقل معجمي	champ lexical
اختبار تأهيلي	épreuve qualifiante
قيمة ذاتية	valeur subjective
قيمة موضوعية	valeur objective
جهة	modalité
تصنيف جهي	catégorisation modale
كفاءة	compétence
إنجاز	performance
ذات افتراضية	sujet virtuel